ʿAlī Wāḥidī.- *Ṣināʿat az-zayt bi al-Maghrib al-qadīm* (Fās: manshūrāt mukhtabar al-bīblyūghrāfiyā at-taḥlīliyya wa athawthīq li-tturāth al-maghāribī. Kulliyat al-Ādāb wa al-ʿulūm al-insāniyya, Ẓahr al-maḥrāz, 2017), 442 p.

علي واحدي.- صناعة الزيت بالمغرب القديم (فاس: منشورات مختبر البيبليوغرافيا التحليلية والتوثيق للتراث المغاربي 2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، 2017)، 442 ص.

بعد إصداره لكتاب بعنوان: **النشاط الاقتصادي في مغرب ما قبل الإسلام: دراسة أركيولوجية لوليلي ومجالها** (2017)، نشر علي واحدي أستاذ التاريخ القديم بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز-فاس كتابا ثانيا بعنوان: **صناعة الزيت في المغرب القديم**، متخذا وليلي أيضا كنموذج، لتوفرها وباديتها على حوالي 80% من معاصر الزيتون القديمة المُكتشفة داخل التراب المغربي. والكتاب في أصله أطروحة جامعية تقدم بها المؤلف سنة 1995 لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، استهدف من خلالها تحديد بدايات تصنيع الزيت في المغرب القديم، في محاولة منه للرد على باحثين غالبا ما ربطوا صناعة الزيت بالوجود الروماني، مُعتمِدا في ذلك على أعمال حفريات أثرية تولى إنجازها بنفسه داخل موقع وليلي منذ سنة 1988. ونوَّه المؤلف في تقديمه للكتاب بدراسات سابقة تناولت معاصر الزيتون الوليلية بشكل مباشر أو غير مباشر، مثل دراسة روبير إتيان عن الحي الشمالي الشرقي في وليلي، ودراستا عمار أكراز وموريس لونوار عن معاصر الزيتون في الموقع ذاته، لكنه شدّد في المقابل على صعوبة القبول بمحاولات التأريخ التي اقترحتها لمعاصر الزيتون، لاستنادها على الوصف والملاحظات العينية والمقارنات النسبية، وعدم اعتمادها الحفريات الأثرية كوسيلة ناجعة للتأريخ.

خصَّصَ المؤلف الفصل التمهيدي من كتابه لوصف الإطار الطبيعي والسوسيو اقتصادي لإنتاج الزيتون وصناعة الزيت بوليلي. حيث وفرت البيئة الطبيعية مؤهلات ملائمة سمحت بانتشار أشجار الزيتون، ومنها التضاريس التي ترتب عن تعاقب الصخور المنفذة وغير المنفذة بها انبثاق عدد كبير من المنابع المائية، تأتَّى استثمارها في أشغال الري. وهذا فضلا عن مناخ مساعد لم يختلف كثيرا عن مثيله الراهن حسب المؤلف، والذي أسهم في إتاحة اتساع رقعة غراسة الزيتون داخل المجال الفلاحي المحسوب على منطقة وليلي، والممتد من باب تيسرة [قرب سيدي قاسم] إلى طوكولوسيدا، ومن واد الردم إلى السفوح الشرقية للجبال المطلة على

وليلي حتى واد بني مرعاز. أما عن مِلكية هذا المجال وطرق استغلاله، فقد رجَّح المؤلف امتلاك سكان وليلي ممن عُثر على معاصر الزيتون في منازلهم للضيعات الفلاحية في البادية المجاورة، مُميزا في الاستغلال بين طريقتين اثنتين هما الاستغلال المباشر والمُزارعة، ومُدافعا، خلافا لما ذهب إليه بعض الباحثين، على فرضية الاستغلال المكثف للعبيد في الأشغال الفلاحية، إضافة إلى العمال المأجورين. ومن جهة أخرى، نوّه الباحث بالمقومات الاقتصادية لوليلي، والمتمثلة في وُجودها بملتقى الطرق التجارية، واستقطاب أسواقها للمزارعين ومُربي الماشية والتجار، إلى جانب توفر مجموعة من دورها السكنية على تجهيزات حِرفية متصلة بإنتاج زيت الزيتون، المُستخدم آنذاك في التغذية والإضاءة والغسل والتنظيف والتجميل والتطبيب، علاوة على ارتباطها تجاريا ببادیتها وبقية مناطق موريطانيا الطنجية عبر المسالك البرية والنهرية.

وبعد هذا الفصل، انتقل المؤلف في الباب الأول إلى وصف غراسة الزيتون في المجال الفلاحي التابع لمنطقة وليلي، فاتبع الإشارات الدالة عليه مثل اللوحات الفسيفسائية والمصادر العربية الوسيطية، وفصل الحديث في مختلف المراحل التي يمر منها الزيتون لاستخلاص الزيت منه، مرورا بالجني الذي يتم خلال فصل الخريف بواسطة عِصِي طويلة، ونقل الزيتون بالعربات إلى المعاصر في وليلي وباديتها، يلي ذلك الطحن في نوعين من الطواحين المكتشفة، وهما الطاحونة المخروطية ومثيلتها الأسطوانية الشكل، ثم العصر الذي تطلب توفير تجهيزات وآليات أهمها منضدات العصر ومساحات مبلطة لتجميع لُباب الزيتون أو لوضع الزيتون في انتظار طحنه، وجذع شجرة طويل وضخم ثم الثَّقَّالات. وبعد الانتهاء من عملية العصر، تتم التصفية في الأحواض، ويُخزَّن الزيت المُستخلص في الأمفورات الخزفية أو الأحواض، ليقع تسويقه على المستوى المحلي، وداخل الولاية إن كان هناك فائض منه. أما بخصوص المعاصر، فقد صنفها المؤلف حسب الأحياء، مميزا بين معاصر الحي الشمالي الشرقي وحي المباني العمومية، ومعاصر الحي الشرقي والجنوبي والغربي. وكما اهتم بالكشف عن الاختلافات في مكونات المعاصر على مستوى منضدات العصر والمساحات المبلطة والثَّقَّالات وأنواع المطاحن، مع تقديم معطيات حول التأريخ النسبي لكل معصرة من المعاصر المكتشفة داخل الموقع. أما الباب الثاني من الكتاب، فقد كرسه الباحث لتأريخ معاصر الزيتون بمنطقة وليلي، انطلاقا من 29 استبارا أنجزها علي واحدي في مختلف المعاصر لتأريخها تأريخا مطلقا، فقدم في هذا الصدد لكل استبار قام به من خلال معطيات محددة هي: تاريخ الاستبار، ورقمه وموقعه وأبعاده، والهدف منه، ثم المعطيات التي تم التوصل إليها من خلاله. وتمخضت عن هذا المجهود البحثي نتيجة أساسية مفادها أن قسما كبيرا من المعاصر يعود تاريخها إلى ما قبل منتصف القرن الأول الميلادي أي قبل الفترة الرومانية، كما أن انتشار استخدام الثَّقَّالات المقنطرة دليل على أن

عملية عصر الزيتون تقنية ما قبل رومانية، اعتمادا على نتائج الاستبارين المنجزين في المعصرة رقم 22 في الحي الشرقي. وفي الأخير، ذيل المؤلف الكتاب بمجموعة كبيرة من اللوحات [204] والأشكال [30]، إضافة إلى ملحق خاص بالمختصرات المتعلقة بالخزف والأمفورات، والمصطلحات الأثرية المستعملة في الكتاب [عربي - فرنسي] ولائحة المصادر والمراجع.

لقد قدم المؤلِف بهذا الكتاب إضافة نوعية لمعارفنا حول الزيتون والزيت في المغرب القديم، معتمدا في ذلك على المصادر الأدبية والنقائش اللاتينية واللوحات الفسيفسائية والخزفيات، مضيفا إليها نتائج الاستبارات الأثرية المنجزة من طرفه بحكم جمعه في تكوينه بين التاريخ وعلم الآثار. وقد فنَّدَ بذلك مقولة ارتباط صناعة الزيت بالوجود الروماني، وراجع عددا من الفرضيات الواردة حول تأريخ معاصر وليلي. وهو عمل كان في الإمكان أن يتخذ نهجا تركيبيا وليس مونوغرافيا لو شمل المعاصر المسكتشفة في بادية وليلي وبقية المواقع الأثرية المغربية.

وفي المقابل، استرعت انتباهنا في الكتاب بعض الأمور لا بأس من الإشارة إليها، ومن بينها اعتماد الباحث في تحديد ملامح المناخ القديم لكتلة زرهون على النصوص الكلاسيكية بالدرجة الأولى، على الرغم من افتقارها لسلسلة ملاحظات ممتدة زمنيا، مستمرة وكمية، متناسقة ومنسجمة بخصوص الحرارة والتساقطات. حيث اقتصرت على تقديمها لمعلومات يكتنفها الغموض أحيانا وغير مباشرة عن المناخ القديم، كما اكتفت في الغالب بالإشارة إلى الوقائع المناخية المتطرفة. ومما لاشك فيه، أن الباب يبقى مفتوحا أما الباحثين الشباب للاستعانة ببعض العلوم الدقيقة التي أصبحت في الظروف الراهنة ضرورية وملزمة في القيام بمثل هذه الأبحاث. ونذكر من بينها، الجيومورفولوجيا والجيوأركيولوجيا والباليومناخ والدندروكرونولوجيا والباليوإيكولوجيا، وغيرها من العلوم المساعدة التي تطورت في السنوات الأخيرة بفضل التقدم التكنولوجي السريع. وفضلا عن هذه الملاحظة، تخللت النص أخطاء مطبعية كثيرة، وتناقضات في المعطيات الرقمية الواردة. ففي إحصائه للمعاصر المُكتشفة داخل وليلي، ذكر المؤلف أن عددها 56 معصرة، ليرتفع الرقم فيما بعد إلى 66 معصرة، ثم إلى 70 معصرة. وتصح الملاحظة نفسها بخصوص المعاصر المكتشفة خارج وليلي، وتقدير عدد أشجار الزيتون والمساحة المخصصة لغراستها في منطقة وليلي خلال الحقبة القديمة، وحجم الإنتاج السنوي من الزيتون. ومن جهة أخرى، وعلى سبيل المقارنة، حاول المؤلف إسقاط المعطيات الخاصة بحجم الاستهلاك السنوي للزيتون في جزيرة جربة التونسية على حالة وليلي، فقدَّر الاستهلاك الفردي السنوي للزيتون بـ 26 كلغ، مضروبا في عدد السكان وهو 15.000 نسمة، ليصل إلى استهلاك سنوي إجمالي قدره 390 طنا. وهي حصيلة من الصعب

القبول بها، لارتكازها على معطيات رقمية افتراضية بعيدة أحيانا عن الواقع. ومن المستبعد حصول سكان وليلي على حصص سنوية متساوية أو متقاربة من الزيتون، بسبب التفاوتات الاجتماعية الكائنة داخل النسيج الحضري. كما أن تقدير عدد سكان وليلي بـ 15.000 نسمة هو ضرب من المجازفة، وغير صحيح إذا أخذنا بعين الاعتبار إمكانية حدوث تقلبات في هذا الرقم بموازاة مع مختلف التحولات الديموغرافية الطارئة على المدينة. بالإضافة إلى ذلك، اتسمت البيبليوغرافيا المعتمدة بتقادمها، وبحاجتها الماسة إلى التحيين، إذ تعود في أغلبيتها إلى ما قبل التسعينيات من القرن الماضي، تاريخ إعداد الباحث للأطروحة. ومع ذلك، نود التأكيد في ختام هذا العرض على أهمية هذا الكتاب الفريد الذي يكتسي قيمة أكاديمية أكيدة، وإضافة نوعية للجهود الرامية إلى تسليط مزيد من الأضواء على قضايا الاقتصاد المغربي خلال الحقبة القديمة، وهي المسؤولية التي تقع على عاتق جيل الباحثين الشباب الذين لا زالت أمامهم فرص كبيرة للخوض في مثل هذا الموضوع الذي تناوله علي واحدي بكثير من الجدية في دراسته حول صناعة الزيت في المغرب القديم.

سمير أيت أومغار
باحث في التاريخ، مراكش